من أسرار التنزيل

للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي

سنة ٦٠٦ هـ

تحقيق

عبد القادر أحمد عطا

الناشر

دار المسلم

تم التعاقد مع الأستاذ عبد القادر احمد عطا على تحقيق هذا المخطوط لحســاب دار المسلم بموجب تنازل محرر بخطه لعدة طبعات ٠

ودار المسلم ستقاضي كل من سولت له نفسه من طبع ذلك المخطوط والرجوع عليه بالأضرار الأدبية والمادية التى لحقتنا ٠

والله المستعان

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

رموز المستعملة فى التحقيق

ج = نسخة مكتبة جامعة القاهرة

ر = نسخة دار الكتب المصرية

[ ] = كلمات أضفناها لتوضيح المعنى

إهـــداء

إلى روح الرجل الذى أسهم فى توجيهى نحو تراث الإسلام منذ الأربعينيات

الرجل المهاجر بدينه ، والذى احتمل الآلام والغربة فى سبيل الله .

العالم الفذ الذى لا نجد له نظيرا فى العصر .

الشيخ فى عمره ، والشاب فى عمله .

الذى مات والقلم فى يده ، ونصرة الله فى قلبه : ومستقبل الإسلام فى عقله .

الإمام الشيخ محمد زاهد الكوثرى .

وكيل المشيخة الإسلامية العثمانية . . طيب الله ثراه .

المحقق

الحركة فى شعار الاسلام

تمهيد :

شعار الإسلام (لا إله إلا الله) . والعلم بهـذا الشعار ينقل الإنسان بالتصديق للشق الثانى من الشعار ، وهو (محمد رسول الله) .

ومن دلائل العظمة فى المنهج الإسلامى : أنه يقبل هذه الكلمة من قائلها ، ويسلكه فى عداد المسلمين ، حتى ولو لم تكن قد استقرت فى قلبه على مدرجة اليقين ، الأمر الذى يحدث خلطا بين المؤمنين والمنافقين ، ويدفع إلى التساؤل الفورى : وكيف تستقيم الحركة الإسلامية على طريقها وفى جمهور السائرين على الطريق صادقون ومنافقون ، ونحن قد أجمعنا على أن النفاق والإرجاف والفتنة والخيانة شىء واحد ؟

ونقول : إن النظام الإسلامى المحكم الذى أحكمه الله فى كتابه ، والرسول فى سنته ، لم يكن غافلا عن خطورة النفاق والمنافقين ، وهو فى الوقت نفسه ليس نظاما « بوليسيا » ينقض على أولئك المرضى ويزجّ بهم فى ظلمات السجن والاعتقال ، بل يتلطف بهم ، ويسلكهم فى إطاره العام ، ويتيح لهم فرصة الشفاء من هذا المرض اللعين بصحبة المؤمنين المخلصين ، وفى الوقت نفسه ينبه إلى سماتهم وعلاماتهم وصفاتهم حتى يكون المؤمنون على حذر منهم ، دون أن يواجهوهم باتهام صريح يفصلهم عن جمهور المسلمين .

فعلى الرغم من أن القرآن الكريم يعنى بالأصول : ويترك تفاصيلها للسنة النبوية ، إلا أنه فى موضوع النفاق بالذات نجده يفيض ويستقصى صفات المنافقين صغيرها وجليلها ، ظاهرها وخفيها ؛ بحيث لا يشذ واحد منهم عن أنظار المسلمين ، ثم نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يفسر هذه الصفات ، ويجمعها تحت بنود قليلة لتكون معروفة للجميع ، ثم يملى أسماء المنافقين على واحد من أصحابه يعتبر « كاتما للأسرار » بحيث لا يفضحهم المسلمون ولا يقعون فى حبائلهم التى كانوا ينصبونها للمسلمين .

والدليل على أن البيانات الخاصة بالمنافقين كانت سرية ، وعلى أن

سياستهم كانت موكولة للرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ، أن كبار الصحابة من أمثال عمر بن الخطاب كانوا يسألون حذيفة بن اليمان الذى كان يعرف المنافقين جميعاً كما أملاهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حالهم ، وهل توجد أسماؤهم بين قوائم المنافقين أم لا ؟

ولعل سرية هذه المعلومات كانت تؤدى عملا هاما آخر هو : استدامة اليقظة من الصحابة لأنفسهم ، وتفقدهم لها ، حتى لا تشوبها شائبة من النفاق الذى يعرض أحيانا فى صور لا يدركها الإنسان إلا بضروب من التأمل الدقيق ، وقد يخفى وجه الحق فيها على مثل أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، كما جاء ذلك فى قصة حنظلة الأسدى الذى قصد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وقت الظهيرة ، فلقيه أبو بكر ، فسأله عن وجهته ، فقال له : نافق حنظله فقال أبوبكر : وما ذاك ؟ قال : إنا نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصف لنا الجنة والنار ، كأنا نراهما رأى عين ، فإن رجعنا إلى أهلينا ، وعافسنا (لاعبنا) الزوجات والأولاد نسينا ؟ فقال أبو بكر إنى والله لأجد مثل ذلك . وانطلقا معا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث طمأنهما على أن ما يجدانه ليس من النفاق فى شىء وقال : « لو تدومون على ماتكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى الطرقات ، ولكن يا حنظلة ، ساعة وساعة » . فالنسيان هنا حصن أمين من غلبة الروحانية على المسلم حتى لا يفقد صلاحيته للحركة الإسلامية التى تعنى بالعمل الروحى والعمل الحضارى على مستوى واحد لا يتغلب أحدهما على الآخر .

كانت الحركة الإسلامية تمضى فى طريقها ، وكان النفاق يلعب دوره على الطريق ، ولكن اليقظة النبوية ، وذكاء الصحابة ما كان يدع للنفاق فرصة للنجاح . . وكان قبول الشهادتين باللسان من المنافقين سياسة إسلامية عليا كان من نتائجها أن يكون من أبناء المنافقين رجال من كبار الصحابة المؤمنين ، كان عبد الله بن أبى بن سلول رأس النفاق ، وكان ابنه من كبار المؤمنين ، ومع أنه رأى أن أباه قد ارتكب من الجرائم ما يستحق عليها القتل فى العرف العربى ، إلا أنه لم يشأ أن يرى الجلاد الذى ينفذ حكم الإعدام

فى أبيه إن حكم عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بالإعدام ، فعرض عليه أن يأمره بقتله حتى يكون هو اليد التى تقتص من أبيه الذى أجرم فى حق أم المؤمنين عائشة فى قصة الإفك فوق جرائمه فى حق الحركة الإسلاميةوعقيدة الإسلام .

ولولا سماحة النظام الإسلامى على هذه الصورة المعجزة لما أمكن استبقاء إخلاص أبناء المنافقين وذوى قرباهم — فيما نرى — إلا على صورة أخرى غير تلك الصـــورة المشرفة التى تتألق على هامة الزمان من تاريخ أبناء الإسلام .

ولولا حكمة النظام ، وذكاء المؤمنين ، ودقة المنهج النبوى لمااستطاع النظام الإسلامى أن يحمى نفسه من كيد هذه الفئةالشيطانية ، ويستبقى إخلاص أبنائها وعشائرها على صورة نامية ومتعاظمة ، بل إن أى نظام وضعى فى الدنيا كلها يسلك هذا الطريق ، فإنه لابد أن يصاب فى صميمه عاجلا بفعل مكائد النفاق . أو آجلا بفعل الضجة المثارة حول أساليب القمع والاعتقال والتعذيب والقتل لحماية المجتمع من آفة النفاق .

ولما كان النفاق آفة شاملة للناس جميعا على صور ودرجات مختلفة ، فإن الإسلام كان حكيما كل الحكمة فى عدم مواجهة المنافقين بالعداء ، وفى الحذر الذكى من أساليبهم وعملهم الهمجى اللئيم ضد مسيرة الدعوة . .

وكما كان الإبقاء على أهل الكتاب بين المؤمنين عاملا على إتاحةالفرصة لهم ليهتدوا إلى الإسلام بمعاشرتهم للمؤمنين ، وباقتناعهم عن قرب بسماحة الإسلام وطبيعته البناءة ، فكذلك كان الإبقاء على المنافقين بينالمؤمنين دون إجراء « بوليسى » عاملا من العوامل التى تفتح الباب واسعا أمامهم للتأمل والتدبر فى دلائل صدق شعار الإسلام كما قررها القرآن ، ومن هنا يمكن أن تتصل قلوبهم بشعاع من نور الصدق الذى لا يبعد عن كل متدبر ومتأمل .

* * *

لا إله إلا الله فى السنة النبوية :

قلنا فى دراستنا المقدمة لكتاب « القصد والرجوع إلى الله » للإمام

السلفى الجليل الحارث بن أسد المحاسبى : « إن النطق بالشهادتين على أى وجه من الوجوه يعتبر فى صورة من صوره تحولا من عمق الجحود والكفر إلى أول طريق المعرفة والإيمان ، وهذا النطق اللسانى لايخلو من قدر — ولو كان قليلا — من عمل قلبى يلازم نطق اللسان ولا يفارقه .

« فالنطق بالشهادتين لم يكن ارتجالا من الراغب فى الدخول إلى الإسلام، وإنما كان عن أمر الله تعالى — وهو الغيب المطلق — وبإخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن غيب آخر هو الوحى الذى يعتبر من غيب آخر هو عالم الملائكة ، وهو عالم أقرب إلى مدارك الإنسان من الغيب المطلق ، فأصبح الرسول البشر هو الآخر بداية لحركة القلب بالعمل نحو الغيب الذى هو عناصر الإيمان » .

وأساس الإيمان « لا إله إلا الله » . ومتى استقر الإيمان بهذه الكلمة سهل الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وهى عناصر الإيمان الأخرى .

وكلمة « لا إله إلا الله » لها شأن عظيم فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقد أخرج الشيخان عن أبى ذر قال : خرجت ليلة من الليالى ، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى وحده ، وليس معه إنسان ، فقلت : إنه يكره أن يمشى معه أحد ، فجعلت أمشى فى ظل القمر : فالتفت فرآنى فقال : « من هذا ؟ فقلت : أبو ذر جعلنى الله فداك . قال : يا أبا ذر ، تعاله ، فمشيت معه ساعة فقال : إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة ، إلا من أعطاه الله خيرا فنضح فيه عن يمينه وشماله وبين يديه ووراءه ، وعمل فيه خيرا ، قال : فمشيت ساعة ثم قال لى : أجلس ههنا حتى أرجع إليك، فانطلق فى الحرة (الأرض ذات الحجارة السود) فأطال اللبث ، ثم إنى سمعته يقول وهو مقبل : وإن زنى وإن سرق ، فلما جاء لم أصبر فقلت : يانبى الله ، جعلنى الله فداك من تكلم فى جانب الحرة ؟ ما سمعت أحداً يرجع إليك شيئاً ، قال : ذاك جبريل عرض لى فى جانب الحرة فقال : بشر أمتك

من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . فقلت : ياجبريل ، وإن زنى وإن سرق ؟ قال : نعم ؛ فقلت : يارسول الله ، وإن زنى وإن سرق ؟ قال : نعم . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : نعم وإن شرب الخمر » .وزاد الترمذى فى روايته فى المرة الرابعة : « على رغم أنف أبى ذر » .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والبيهقى عن عثمان بن عفان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقاً من قلبه إلا حرم على النار » . قال عمر بن الخطاب ألا أحدثك ما هى ؟ هى كلمة الإخلاص التى ألزمها الله تبارك وتعالى محمداً صل الله عليه وسلم وأصحابه ، وهى شهادة ألا إله إلا الله .

وأخرج مسلم عن أبى هريرة قال: كنا قعودا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فى نفر ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين أظهرنا ، فأبطأ علينا ، وخشينا أن يقتطع دوننا ، ففزعنا فقمنا : فكنت أول من فزع ، فخرجت أبتغى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أتيت حائطا للأنصار ، لبنى النجار ، فدرت هل أجد له بابا : فإذا ربيع (جدول) يدخل فى جوف حائط من بئر خارجة ، فاحتفزت (تضاممت) فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أبو هريرة ؟ فقلت : نعم يارسول الله . قال : ما شأنك ؟ قلت ، كنت بين أظهرنا فقمت فأبطأت علينا ، فخشينا أن تقتطع دوننا ، فكنت أول من فزع : فأتيت هذا الحائط ، فاحتفزت كما يحتفز الثعلب فدخلت ، وهؤلاء الناس ورائى . فقال : ياأبا هريرة ـ وأعطانى نعليه ـ اذهب بنعلى هاتين ، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد ألا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره ، بالجنة . فكان من أول من لقينى عمر ، فقال : ما هاتان النعلان يا أبا هريرة ؟ قلت : هاتان نعلا رسول صلى الله عليه وسلم بعثنى بهما ، من لقيته يشهد ألا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه بشرته بالجنة ، فضربنى عمر بين ثدى فخررت لإستى ، فقال : ارجع يا أبا هريره ، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجهشت بالبكاء ، وركبنى عمر فإذا هو على

أثرى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك يا أبا هريرة ؟فقلت ؟ لقيت عمـــر فأخبرته بالذى بعثتنى به ، فضرب بين ثدىى فخررت لإستى ، فقال : ارجع : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمر ، ما حملك على ما فعلت ؟ قال : يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ، أبعثت أبا هريرة بنعليك من لقى يشهد ألا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه بشره بالجنة ؟ قال : نعم . قال : فلا تفعل ، فإنى أخشى أن يتـكل الناس عليها : فخلهم يعملون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فخلهم » .

وأخرج أحمد والدارمى وابن حبان والطبرانى عن رفاعة الجهنى قال : أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بالكديد أو قال : بقديد ، فجعل رجال يستأذنون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهليهم فيأذن لهم ثم قام فحمد الله وأثنى عليه فقال : « ما بال أقوام يكون شق الشجرة التى تلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبغض إليهم من الشق الآخر ، فلم أر عند ذلك من القوم إلا باكيا : فقال رجل : « إن الذى يستأذن بعد هذا لسفيه ، فحمد الله وقال خيرا ثم قال : أشهد عند الله لا يموت عبد يشهد ألا إله إلا الله وأنى رسول الله صدقا من قلبه ثم يسدد إلا سلك فى الجنة ، وقد وعدنى الله عز وجل أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب ، وإنى أرجو أن يدخلوها حتى تبوأوا أنتم ومن صلح من آبائكم وأزواجكم وذرياتكم مساكن طيبة فى الجنة » .

وأخرج البخارى عن أبى هريرة قال : قلت : يارسول الله ، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : « لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألنى عن هذا الحديث أحد أولى منك لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه : أو من نفسه » .

وأخرج البزار عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بوصية نوح عليه السلام ابنه ؟ قالوا : بلى قال : أوصى نوح ابنه فقال لإبنه : يا بنى ، إنى أوصيك باثنتين ، وأنهاك عن

اثنتين . أوصيك بقول لا إله إلا الله ، فإنها لو وضعت فى كفة ووضعت السموات والأرض فى كفة لرجحت بهن ، ولو كانت حلقة لقصمتهن حتى تخلص إلى الله ، ويقول سبحان الله العظيم وبحمده ، فإنها عبادة الخلق ، وبها تقطع أرزاقهم ، وأنهاك عن الاثنتين : الشرك والكبر ، فإنهما يحجبان عن الله . فقيل ، يارسول الله ، أمن الكبر أن يتخذ الرجل الطعام فيكون عليه الجماعة ، أو يلبس النظيف ؟ قال : ليس ، يعنى بالكبر ، وإنما الكبر : أن تسفه الخلق : وتغمص الناس » . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٠ /٨٤ : وفيه محمد بن إسحاق ، وهو مدلس ، وهو ثقة ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

* * *

ولكن عامة الأحاديث منها ما يعتبر الكلمة موجبة للجنة فى حالة اليقين بها ! ومنها ما يعتبر الكلمة موجبة للجنة فى حالة التصديق بها فقط . . ولما كان اليقين مرتبة من مراتب الإيمان فوق مجرد التصديق ، وكان التصديق مرتبة من مراتب الإسلام فوق مرتبة النفاق ، فكيف انتقلت السنة والقرآن بالإنسان من الإسلام إلى الإيمان : وما هو المنهج المحدد الذى يصل بالإنسان إلى ذلك ؟

وقبل أن نتعرض لبحث هذا الموضوع نسوق نموذجا من السنة ، ثم نعقب بالبحث فى تعاون الكتاب والسنة على الوصول بالإنسان إلى الإيمان واليقين ، حيث لا يستطيعهما الإنسان وحده دون منهج مرسوم ومحدد بكل الدقة والتنظيم .

أخرج أبو داود عن عتبة بن عبد السلمى قال : كنت جالسا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء أعرابى فقال : يارسول الله : أسمعك تذكر فى الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكا منها — يعنى الطلح — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يجعل مكان كل شوكه منها ثمرة مثل خصوة التيس الملبود ، فيها سبعون لونا من الطعام لا يشبه لون الآخر » .

وأخرج الإمام أحمد عن عتبة أن أعرابيا جاء فسأل النبى صلى الله عليه

وسلم عن الحوض والجنة ثم قال : أفى الجنة فاكهة ؟ قال : « نعم ،وذكر شجرة تدعى طوبى . فقال : أى شجر أرضنا تشبه ؟ قال : ليست تشبه شيئا من شجرة أرضك . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيت الشام ؟ قال : لا . قال : تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة ، تنبت على ساق واحد ، وينفرش أعلاها ، قال : ما عظم العنقود؟ قال مسيرة شهر للغراب الأبقع لا يفتر . قال : ما عظم أصلها ؟ قال : لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرما . قال : فيها عنب ؟ قال : نعم . قال : فما عظم الحبة ؟ قال : هل ذبح أبوك نيسا من غنمه قط عظيما ؟ قال : نعم . قال : فسلخ إهابه فأعطاه أمك فقال : إتخذى منه دلوا ؟ قال : نعم . قال الأعرابى : فإن تلك الحبة لتشبعنى وأهل بيتى . قال : نعم وعامة عشيرتك .

فالرسول صلى الله عليه وسلم ينتقل بالمسلم من الحوافز التى تجعله أشد استمساكا بكلمة التوحيد وهى المغفرة ، والجنة ، والبراءة من النار ،وتجعله أكثر اتجاها إلى اليقين بها ، والبحث عن مقومات هذا اليقين فى القرآن والسنن الأخرى ، ينتقل الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسلم فجأة إلى مرحلة من مراحل خطاب الوجدان الذى لا يمكن أن يعتمد على الاقناع العقلى ، بقدر ما يعتمد أساسا على الإيمان الغيبى المجرد .

فأنت ترى أن السنة النبوية لا تدع المسلم يستقر فى حال من السكر والوجد الذى ينتهى إلى النسك والتأمل المجرد من الحركة كما كان الحال فى شريعة المسيح ، بل إن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ومنهاجه يجمع بين الاستبطان الذاتى ، والتأمل الداخلى ، والاسترواح الوجدانى ، والحركة الفعلية ،والعمل الجسدى فى حركة متناسقة بحيث لا تطغى ناحية على أخرى .

فالتماوت والإطراقة المسرحية التى يهيم بها هواة الوجد والاصطلام أو صانعوه لا وجود لها فى الإسلام ، ولكن الذى له وجود هو نفس الشعور الذى يشعر به المتماوت والمطرق والمصطلم مقرونا بالحركة والنشاط العقلى والجسدى سلبا مع المحرمات وإيجابا مع الواجبات والمفروضات . ومن هنا فقد سئل

للرسول صلى الله عليه وسلم عن سمة الإخلاص فى كلمة التوحيد فقال : « أن تحجزه عن محارم الله ».

وحينما أجاب الرسول صلى الله عليه وسلم سائله عن ثمر الجنة بأن مكان كل شوكة ثمرة فيها سبعون لوناً من الطعوم لا يشبه لون منها لوناً آخر ، فإنه يريد أن يخرج السائل وغيره عن دائرة الإقتناع العقلى بالغيب إلى دائرة التسليم المبدئى بالغيب كخطوة أولى على طريق الإيمان الحقيقى ، حتى يتمكن طالب الإيمان من متابعة المنهج القرآن المرسوم بكل الدقة للوصول بالمؤمن إلى اليقين الوجدانى الذى يفوق فى الإقناع والاقتناع حجة العقل وبراهين المنطق الإقناعى المشهور .

فالعقل له حدود فى الإدراك يصاب بعدها بالدهشة والحيرة والذهول ثم الوقوف أمام أمرين : إما التسليم عجزاً ، وإما التوقف والإنكار مكابرة ونفياً لما هو واقع بالفعل ولكنه غير مدرك بالعقل . ولهذا نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول للأعرابى : إن شجرة طوبى فى الجنة لا تشبه شجر الدنيا ، وليس من شجر الدنيا ما يشبهها . ولما وجد الأعرابى متشبثاً بالعقل فيسأل عن عظم أصلها وجذعها ، بدأ يخرجه عن دائرة المألوف الذى يطيق العقل والخيال تصوره فقال له : لو ارتحلت جذعة من إبل قومك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرماً ، وأما عظم عنا قيد الثمر فيها فيحيط بها الغراب الأبقع فى طيران شهر متواصل ، وأما الحبة الواحدة من الثمر حجمها حجم الدلو الذى يستقى به الماء عند العرب

ولك أن تحاول أن تتصور بخيالك جذع شجرة تدور حوله ناقة عشرة أعوام على الأقل فلا تبلغ نهاية قطرها ، ولك أن تتصور عنقوداً من الثمر حجمه مسيرة غراب لمدة شهر من الزمان ، ولكنها فى الحقيقة محاولة غير ناجحة ، لأن تصور قطر جذع شجرة من الشجر يبلغ قطر قارة من قارات الأرض أمر عسير على العقل أن يتناوله ، ومن هنا وجب أن يخرج المسلم الطالب للإيمان عن نطاق العقل حتى يستطيع أن يضع قدمه على أول طريق للحركة الإيمانية الغيبية التى تعتبر المنطلق الأساسى للحركة الإسلامية .

ولو أننا وقفنا مع العقل وتحركنا مع العقل لوصل بنا العقل إلى إنكار الصفات الإلهية ، وخلط الشرك بالإسلام فكما يقول الإمام الرازى : إن العمدة أن الله سبحانه غير متناه فى الذات والصفات ، والعقل متناه فى الذات والصفات ، والمتناهى لا سبيل له إلى إدراك غير المتناهى . . فالعقل عاجز عن معرفة كون الله تعالى قديماً أزلياً ، وذلك لأن كل ما يستحضره العقل إستحضاراً على سبيل التفضيل من مقادير الأزمنة فذلك متناه ، مثلا نفرض قبل هذا الوقت ألف ألف سنة ، ونفرض بحسب كل لحة من هذه المدة ألف ألف سنة ، وهكذا إلى أقصى ما يقدر الوهم والخيال على إستحضاره . ثم إذا تأمل العقل عرف أن كل ذلك قضاه ، والحق إنما كان قديماً أزليا لأنه كان موجوداً قبل هذه المدة التى أحاط العقل والخيال بها . فثبت أن كل مقدار يصل إليه العقل والخيال فالحق سبحانه ليس قديما بإعتبار أنه كان موجوداً فى ذلك الوقت ، بل بإعتبار أنه موجود فيما وراء ذلك ، فإذن لا سبيل للعقل ألتبة إلى معرفة القدم والأزل . . وكل ما يشير إليه العقل فأزليته وأبديته رجبتان عن ذلك المقصود .

فالمنهج النبوى على هذا الأساس يدرب الناس على ألا يمنحوا العقل كل الثقة فيما يتصل بالغيب ومعرفة حقائقه ، وعلى أن صنعة العقل إنما هى النظر فى دلائل الغيب المبثوثة فى الكون حتى تكون حجة للتسليم المطلق ، ولتنشيط العمل الوجدانى الذى يجب أن يتحرك مع العمل العقلى فى إتجاه المسيرة الإسلامية العالمية . وإلا فإن العقلانية المجردة متوقفة لا محالة بركب الإيمان عن الوصول إلى غايته ، محرومة بالقطع من معجزات التأييد الإلهية الموعودة للمؤمنين ، والتى نفذ طرف منها أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم

أقول : إن التسليم الوجدانى العميق مع العمل العقلى فى النظر فى الدلائل ينتج إنسانا مؤمنا لا نجده فى عصرنا الحاضر إلا نادراً بينما كان موجوداً على صورة أوسع أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما ذاك إلا لأن العقلانية إنتهت بنا إلى الحرفية ، فحرمتنا من ثمرات الأعمال التى تعتبر فى

نهايتها صلة وثيقة بالله يعاجل الله أهلها بالعون والتأييد ، وصنع المعجزات .

فمن الثابت أن أحد الصحابة قرأ الفاتحة على من لدغه ثعبان فبرأ من السم ، ومن الثابت أن أسيد بن حضير قرأ القرآن فرأى مثل الظلة فيها أمثال المصابيح ، وأخبره الرسول صلى الله عليه وسلم أنها الملائكة دنت لقراءته ، ومن الثابت أن هذا النحو فى الحركة الوجدانية كان يحتاج من الرسول صلى الله عليه وسلم فى عصره إلى كبح وتعديل فى كثير من أصحابه.. فهو القائل لحنظلة الأسدى : « ساعة وساعة » . وهو الذى أمر عثمان بن مظعون وجماعة أن يرجعوا عن عزمهم على الاختصاء والتبتل ، وهو الذى شجع الذين أبرأوا المسموم وأخذوا بعض الغنم على عملهم فقال : «اضربوا لى معكم بسهم » .

ولكن أروني قارئا للقرآن يقرأ القرآن كله ليبرأ من به صداع لا ليبرأ مسموم . . وأروني قارئا للقرآن يستنزل ملاكا واحدا يستمع لقراءته ، وأروني جماعة مجاهدة تؤازرها الملائكة المسومون فى حربها . . سوف نسمع الكثير من القصص الكاذب فى هذا المجال ، لأن صفات أصحابه ليست هى الصفات التى تتيح لها هذا العون العجيب والمعجز من الله . . ولكن الحق أن مثل هذا الإنسان إن وجد فى العصور المتأخرة فهو الواحد فى الدولة ، أو الواحد فى العصر ، والنادر على هذه الصورة لا حكم له ، ولا نتيجة لعمله إلا فى محيطه الضيق ، وليس على مستوى مسيرة الإسلام ، ومستوى العمل الإسلامى كله .

* * *

لا إله إلا الله فى القرآن :

خير من كشف عن منهج القرآن فى حركة العقيدة الإسلامية على طريق العمل الإسلامى هو الإمام فخر الدين الرازى فى هذا الكتاب .

فهو يكشف عن ناحية يتحتم على المعنيين بالحركة الإسلامية والمخططين لها والكاتبين فيها أن يعتبروها بالمقام الأول من عملهم وفكرهم وكتاباتهم ، لأنها منهج القرآن ، وطريقة السلف ، غشاها ما غشى القلوب من ران المتاع

الدنيوى الذى تحول بالفكر إلى ما يخدم الرفاهية المزعومة فى الإسلام ، وصدق أولئك الحائدون أنفسهم ، وكذبوا غيرهم ، وفى أحسن أحوالهم نافقوا الله فأقروا بألسنتهم ، وخالفوا بأهوائهم ، تارة باسم العصرية ، وتارة باسم التقاليد ، وتارة تحت شعار (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده).. وفرق بين تحريم الزينة وبين الإغراق فيها . فكما أن تحريم الزينة حرام ، فكذلك الإسراف فيها يسبغ على صاحبها أخوة الشيطان (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) .

أقول : إن عشق الحياة بالقلوب هو الذى جعل المفكرين يتشبثون بها : ويجنحون فى طريقة تفكيرهم إلى طريق غير طريق القرآن .

فالإجماع من السلف على أن الطريق الأمثل هو العناية بالأصول قبل العناية بالفروع والأصول الإسلامية تجمعها كلمة (لا إله إلا الله) . تلك الكلمة التى أمضى الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاما من عمر الدعوة البالغ ثلاثة وعشرين عاما فى ترسيخها وتعليمها وتثبيتها فى القلوب ، ثم بعد ذلك بدأت التشريعات المتفرعة عنها . ولو انعكس الحال لانعكس حال الدعوة إلى غير ما هو ثابت فى التاريخ تماما . . هذا هو الحق الذى أجمعنا عليه .

والذى يحزن النفوس ويحز فى القلوب : أن تخيب الآمال فى شباب الإسلام حينما يضعون أنفسهم فى غير مواضعها فعلى الرغم من أنهم لم يتقنوا العقيدة الإسلامية عقليا ووجدانيا فهم يعتقدون أنهم أتقنوها بما لم يتقنه قبلهم أحد ، ولا يلحقهم به غيرهم ، وإن تتبعت قراءاتهم فى موضوع العقيدة فستجدها كتبا لا هم لها إلا الخوض فى التشابه من آيات الصفات كالاستواء على العرش ، واليد والوجه والعين وغير ذلك من الموهمات التى يضل بها الكثير ويهتدى بها الكثير .

ولقد التقى بى أحدهم متأوتا من آثار التقوى والخوف فيما يزعم ، وهو يحمل بيده كتابا كتبه وسعى لينشره فى دار من دور النشر . . فلما تصفحت ما كتب وجدته يرمى المسلمين بالكفر والضلال ؛ ويدعو إلى العنف والثورة اقتداء بثورة كذا وثورة كذا .

وأحزننى أن تستحكم العاطفة وتسيطر على العقل فى أمر من أخص أمور الحركة الإسلامية . فالحق واحد لا يتعدد ولا يتجزأ ، والشيء إما أن يكون حقا وإما أن يكون باطلا ، أما أنه حق من جهة وباطل من جهة فهذا مالا يعرفه الإسلام .

بعد هذه المقدمة قلت له : الثورة على الحاكم المسلم لا يجوز بحكم الأمر النبوى إذا عطلت المساجد وأسكت المؤذنون ، ومنعت الصلاة . وفى غير هذه الحالات : لا تجوز ، بل على المسلمين السمع والطاعة والدعاء بالهداية لهم . هذا ما قاله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . . فإن أحببتم أن تخدموا الإسلام فعلموا الناس على منهج الإسلام ، حتى تنشأ أعداد هائلة من الذين تربوا فى حجر الإسلام ، وحينئذ لا يجد الحاكم الظالم له معينا ، فيخضع لحكم الأغلبية ، وتبقى قاعدة الدولة بعيداً عن عواصف السياسة العالمية التى تتربص بمكان خلا حتى تتسلل إليه .

قال : ونحن نقوم بذلك ونقرأ كتب السلف فى العقيدة . وأرانى كتاباً خاصاً بالبحث فى المتشابه والخوض فيه ، وإن كان لا ينحو منحى السلف من التسليم دون بحث ولا نقاش ولا تأويل .

قلت : وماذا استفدت من هذا الكتاب ؟

قال : استفدت أن هذه الألفاظ لها معان أخرى . فاليد معناها القدرة .

قلت : كذب من قال ذلك . وصدق الله حين قال (**فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله**) . إن قلت إن اليد معناها القدرة ، فما معنى اليدين فى قوله : (**لما خلقت بيدى**) وما معنى الأيدى فى قوله : (**والسماء بنيناها بأيد**) . على قولك يكون معناها : لما خلقت بقدرتين . وبنيناها بقدرات . وقدرة الله واحدة لا تتعدد ، والقول بتعددها كفر صريح وانتهى الأمر دون جدوى .

ولكن الذى بعث الأمل فى نفسى مدرس من الشرقية يرى أن تربية جيل مؤمن هو الطريق الأمثل لخدمة الإسلام ، وليس العنف والثورة ،

واتخذ لذلك طريقاً ، وخطط له خططاً ناجحة .

ولنعد إلى منهج القرآن كما كشف عنه الإمام الرازى فى قوله تعالى : (**فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك**) . فقدم العلم بالأصول على الاستغفار .

وهذا هو منهج الأنبياء جميعاً ، وأولهم إبراهيم الخليل عليه السلام الذى قال : (**رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين**) . فالحكم هو القوة النظرية لمعرفة الحقائق . والصلاح علم العمل فى الفروع

وموسى قال له ربه : (**إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى**) . فقدم العلم بالله على العمل فى العبادة . وعيسى قال : (إنى عبد الله آتانى الكتاب). فعبوديته لله إشارة إلى الأصول والكتاب إشارة إلى الفروع .

أما الطريق إلى تثبيت هذه الأصول فهو وارد فى سورة البقرة فى خمسة أنواع من الدلائل هى كل الحركة العقلية والجسدية فى علم العقيدة . أولها (اعبدوا ربكم الذى خلقكم) . وذلك هو النظر فى النفس ودلائلها على وجود الله . وثانيها (والذين من قبلكم) . وهو النظر التاريخى فى أحوال الآباء والسابقين . وهو يشمل النظر التاريخى ودراسة الآثار ، والكشف عن أصل الخلق . قال تعالى : (**أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم**) . وقال : (**قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الله الخلق**) . وثالثها أحوال أهل الأرض (**الذين جعل لكم الأرض فراشا**) . والنظر فيها وفى باطنها . ورابعها أحوال السماء وما فيها (**والسماء بناء**) . وخامسها : ما بين السماء والأرض من حوادث (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم) . ثم رتب المطلوب على هذه للدلائل الخمسة (**فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون**) .

وقد فصل الرازى رحمه الله تفاصيل تلك الدلائل تفصيلا يدفعك إلى اليقين فى رفق واقتناع بالتسليم الغيبى والنشوة بما اكتسب الناظر فى القرآن من علوم وأسرار .

ولكن الذى نريد أن نقوله هنا : إن العقيدة ليست عقيدة صماء ، بل هى حركة فى داخل النفس ، وفى داخل التاريخ ، وفى عنان السماء ، وفى الاتصال بين السماء والأرض وهذه الحركة الصعودية النزولية كفيلة باليقين إن شاء الله .

أسرار لا إله إلا الله

الفصل الأول

فى أسرار كلمة لا إله إلا الله

قال الله سبحانه وتعالى لرسوله : **(فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات)**.[١] .

اعلم أن الله تعالى قدم الأمر بمعرفة التوحيد على الأمر بالاستغفار ، والسبب فيه : أن معرفة التوحيد إشارة إلى علم الأصول ، والاشتغال بالاستغفار إشارة إلى علم الفروع ، والأصل يجب تقديمه على الفرع ، فإنه مالم يعلم وجود الصانع امتنع القيام بطاعته وخدمته . وهذه الدقيقة معتبرة فى آيات كثيرة :

أولها : أن إبراهيم عليه السلام لما اشتغل بالدعاء قدم المعرفة على الطاعة فقال : **(رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين)**[٢] . فقوله : (هب لى حكماً) إشارة إلى استكمال القوة النظرية بمعرفة حقائق الأشياء ، وقوله : (وألحقنى بالصالحين) إشارة إلى استكمال القوة العلمية[٣] بالاجتناب عن طرفى الإفراط والتفريط . فقدم العلم على العمل .

وثانيها : أنه تعالى لما أوحى إلى موسى عليه السلام راعى هذا الترتيب . فقال : **(وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى)**[٤] . فقوله : (لا إله إلا أنا) إشارة إلى علم الأصول » وقوله : (فاعبدنى) إشارة إلى علم الفروع .

---

(١) سورة محمد / ١٩ . (٢) الشعراء : ٨٣ .

(٣) فى د (القوة العملية / . والسياق يقتضى ما فى ج . إذ أن القوة العلمية وهى النظرية ، هى التى تستكمل بالعمل بعيداً عن الإفراط والتفريط . فهذا العمل استكمال لقوة النظر .

(٤) سورة طه / ١٣ ، ١٤ .